فلسفة الأخلاق بين الكونفوشيوسية والطاوية

"دراسة مقارنة"

د. تانغ شيومي

بروفيسورة بقسم اللغة العربية بكلية الدراسات الآفروآسيوية
بجامعة الدراسات الدولية بشيآن جمهورية الصين الشعبية

ملخص الدراسة:

من المعروف أن الفلسفة الكونفوشيوسية والطاوية قد لعبت دورا أساسيا في أيديولوجية مجتمع الصين الإقطاعي. ومنذ آلاف السنين قد أثرت الفلسفة الكونفوشيوسية والطاوية في حياة الشعب الصيني تأثيرا كبيرا، وفي قديم الزمان، كان من يعمل كموظّف حكومي لا بد له من إجادة واستيعاب هذه الفلسفة. ومع أن هاتين الفلسفتين تحتويان على موضوعات عديدة، ولكن هذا البحث يقتصر على الدراسة في الأفكار الأخلاقية بينهما، مشتركة كانت أو مختلفة؛ ويكون هذا البحث موضحا للدارسين ماهية الكونفوشيوسية والطاوية في فلسفة الأخلاق، ويستهدف إلى إزالة المبهمات وتوضيح فرقهما في فلسفة تزكية نفس الإنسان وتصفية قلبه وصقل عقله بينهما.

الكلمات المفتاحية:

فلسفة الأخلاق، الكونفوشيوسية، الطاوية، دراسة مقارنة.

The comparative study on the Ethical philosophy of Confucianism and Taoism

Tang Xuemei

ABSTRACT:

As we all know, Confucian philosophy and Taoist ideas played an important role in the ideological construction of Chinese feudal society. For thousands of years, Confucianism and Taoism have had a great influence on the life of Chinese

(ISSN: 2536 - 9555)

people. In ancient times, as a government official, it must master and absorb this ideology. Although these two philosophies have many themes, but this study is limited to the study of their ethical thoughts, common or different; this study explains to learners what the ethical philosophy in the Confucianism and Taoism are, and the reality of moral philosophy aims to eliminate ambiguity and the purification between them, to clarify their philosophical differences.
Keywords:
ethical philosophy; Confucianism; Taoism; comparative study.

أوّلاً: نشأة الفلسفة الكونفوشيوسية والطاوية الصينية

الصين دولة ذات قوميات متعددة وتاريخ عميق، فما أن انتقلت الصين من نظام المجتمع البدائي إلى النظام العبودي حتى ظهرت فيها فلسفة بسيطة تمتاز بدراسة العلاقة بين العناصر الخمسة (المعدن والخشب والماء والنار والتراب) بعضها ببعض وبين "يين" و"يانغ" (المؤنث والمذكر) وبخاصة أصبحت الدراسة في طقوس "لي" (يعني عبادة آلهة الأجداد) أهم ما يقوم به المرء[١]. فمن اتّبع هذه الطقوس فقد اتّبع قدرَ "السماء" والاعتدالَ، ومن خالف هذه الطقوس فقد خالف قدر ومكانة "السماء" والاعتدال. وعند ظهور هذه التقاليد بدأ الجدل والحوار حول الألوهية واللاألوهية، وأما علاقة السماء بالإنسان، وعلاقة الآلهة بالإنسان، وعلاقة الواحد بالإثنين... فثار حول هذه الموضوعات الفلسفية جدال شديد.

ففي عصر الربيع والخريف (سنة٧٧٠ ق.م– سنة٤٧٦ق.م) مثلا ظهر الجدال حول طاعة إله السماء وطاعة الإنسان، وحول العلاقة بين الإله والإنسان. وهذا

[١] انظر: رن جي يوي، تاريخ الفلسفة الصينية، دار الطباعة الشعبية، الطبعة الأولى، سنة ١٩٨٤م، الجزء الأول، ص ٦٨.

الجدال قد متّ إلى الفلسفة والسياسة بصلة وثيقة[٢].

كما ظهر في هذا العصر أيضا مدارس فلسفية شتى تتمير بآرائها السياسية والأخلاقية الواضحة، مثل الفلسفة الكونفوشيوسية والطاوية، وليس من المستغرب أن نرى أن هذه المدارس ليست ديانة بالمعنى المعروف، بل هي مجموعة تعاليم وآراء فلسفية إنسانية يقوم أساسها على القواعد الأخلاقية والفضائل الطبيعية التي تؤيدها البراهين الحسية وتؤيدها العواطف النفسية. فقد بدأ الأشراف في هذه المدارس يربطون آلهة السماء بأباطرة الأرض؛ وبهذا تكونت نظرية الإله تدريجيا، ولكن السلطة ذات النفوذ قد احتكرت حقوقا متصلة بإله السماء[٣].

وكذلك قد ظهر في هذا العصر نظرة إلهية تدلّ على أن الأديان البدائية قد تطورت من الخرافات (كما شهدت الأساطير في الصين القديمة) إلى عبادة الآلهة، ويدلّ هذا على وجود عبادة القدماء للقوى الخارقة للعادة، وخيالهم في قهر الطبيعة. فقد ساهمت المدارس الكونفوشيوسية والطاوية في هذا المجال مساهمةً ما.

وأما الفلسفة الكونفوشيوسية التي تأسست على فكرة المروءة (رين) وفكرة الأخلاق والنفس والإنسان فجذبت كثيرا من الناس إلى دراستها والقبول بها في حياتهم الروحية. لذلك يرى الماديون أنها من الفلسفات، ويرى عوام الناس أنها من الأديان. وهذه الفكرة قد اختلفت عن فلسفة "لاو تسي" فقد قام بتجربة نظرية جديدة، وجعل لأوّل مرة "داو" (الطريقَ) في الطبيعة العليا في مجال الفلسفة، ومع أن داو (الطريق) الذي ذكره لاو تسي يقترب من مفهوم الإله ولكن فكرته في "لا

---

[٢] انظر: شياو جيه فو ولي جينغ تشيوان، تاريخ الفلسفة الصينية، دار الطباعة الشعبية، الطبعة الأولى، ١٩٨٢م، الجزء الأول، ص ٢٧.

[٣] انظر: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٢٨.

(ISSN: 2536 - 9555)

يعمل السماء"[٤] جعلت كثيرا من الصينيين يرون أن فكرته هذه فكرة مادية مجردة ليس غير.

وإذا تصفحنا سجلات التاريخ الصيني نرى بوضوح أن الفلسفة الكونفوشيوسية والطاوية قد أثرت منذ آلاف السنيين– مع دخولها في كل بيت من البيوت– على أفكار الصينيين وأعمالهم ونظام حياتهم. وكان لهما دور في تحديد السلوك الإنساني الإيجابي، ومعرفة المواطن الصيني بواجباته وحقوقه نحو الآخر، وليس غرضنا أن ندرس هنا كيفية تأثر الصينيين بهذه الفلسفة، ولكن يهمنا هنا أن نبرز ماهية وأهمية الأخلاق بين الفلسفتين وما الفرق بينها وهذا هو موضوع دراستنا هنا.

ثانياً: فلسفة الأخلاق بين الكونفوشيوسية والطاوية الصينية

١. الأخلاق في الفلسفة الكونفوشيوسية

الكونفوشيوسية مذهب من المذاهب الفلسفية، وهي منسوبة إلى فيلسوف مشهور، وسياسيّ عظيم، ومتعصب شديدَ التعصب لنظام المجتمع العبودي، عاش في عصر الربيع والخريف، وقد ضحّى بحياته دفاعا عن النظام العبودي المتهدم، ألا وهو كونفوشيوس[٥].

وقبل أن ندخل في صميم الموضوع تدعو الضرورة إلى أن نعرض نبذة عن حياة كونفوشيوس، وهو كونغ تشيو (سنة٥٥١ق.م– سنة٤٧٩ق.م) ولقب بجونغ ني، ولد في مدينة تشيويفو التابعة لإمارة "لو" المسّماة اليوم بمقاطعة "شاندونغ"[٦]،

---

[٤] لاو تسي، داو ده جينغ، دار الكتب التراثية بجيانغسو، الطبعة الأولى، سنة ٢٠٠١م، الفصل ٣٧، ص ١٠٠.

[٥] انظر: المعجم المحيط الصيني، ص ١١١٩.

[٦] انظر: اسم المقاطعة، تقع في مجرى النهر الأصفر الأسفل في شرق الصين. انظر: المعجم المحيط الصيني، ص ٧٨٤.

فمات أبوه وهو في الثالثة من العمر. وكان فقيرا ولكنه كان مهذب ومؤدب مع الجميع. وقد عمل في أوائل حياته خازنا في أحد المخازن وراعيا في أحد المراعي. وهو لم يجلس عند أستاذ معين، بل تلقى العلم من أكثر من أستاذ. وقد حكي أنه درس الأدب من لاو تسي؛ وتعلّم الموسيقا من الأستاذ تشانغ هونغ؛ وتعلم عزف الآلات الموسيقية من الأستاذ شي شيانغ[٧]. وقد تتلْمذَ عليه عدد كبير من التلاميذ وألقى المحاضرات لهم، وكان حوله ثلاثة آلاف تلميذ، وكان بعد استقالته من الوظيفة يطوف ويتجول مع تلاميذه في أنحاء إمارة "لو". وكذلك قام في هذه الفترة بتدوين الكتب التراثية[٨].

والمعرفة عند كونفوشيوس أصل من أصول الحكمة والإدارة، وأما الكتب التي تمنح الحكمة وتمكن الإنسان من المعرفة وتجعله قادرا على توليه شؤون الناس في الصين فهي نوعان:

أ- الأصول الخمسة القديمة[٩].

ب-الكتب الأربعة الملحقة[١٠].

وتعتبر هذه الكتبُ التراثَ الفكري الحقيقي للصين في مجال الفلسفة والتاريخ والأدب والأخلاق. وكان كونفوشيوس مفكرا يميل إلى طبقة ملاّك العبيد حينذاك، وكان مؤسّسا لمدرسة الكونفوشيوسية، وقد صان النظام العبودي بما تأثر به من عقيدة طاعة القدر التقليدية ومن آراء سياسية محايدة. وقد صار "نبيا" في المجتمع الإقطاعي، فأثرت فكرته على كل مجالات حياة الصينيين الروحية. وفي حقيقة

---

[٧] انظر: المرجع السابق، ص ١١١٩.

[٨] انظر: شياو جيه فو ولي جينغ تشيوان، تاريخ الفلسفة الصينية، ص ٧٠.

[٩] الأصول الخمسة القديمة: كتاب الوثائق التاريخية، وكتاب القصائد والشعر، وكتاب التبدلات، وكتاب القداس والحفلات، وحولية الخريف والربيع.

[١٠] الكتب الأربعة الملحقة: الحوار، والمعرفة الكبرى، والاعتدال، وآثار منغ تسي.

(ISSN: 2536 - 9555)

الأمر إن فلسفة كونفوشيوس مليئة بالمتناقضات، وذلك لأنه عندما أراد إنهاء الأزمة السياسية الاجتماعية في النظام العبودي دعا إلى ضرورة إعادة "أدب أسرة تشو"، ولكنه لما رأى أن هذا الأدب قد فقد فعاليته في تنظيم المجتمع، ما لبث أن طرح فكرة الأخلاق التي تتركز حول المروءة، وأكد على إدراك النفس والمبادرة الذاتية، وجعل المروءة والحياة متصلة إحداهما بالأخرى. فقد أثرت فكرته هذه على الأجيال المتأخرة في مجالات عديدة، ومن أجل إزالة التناقضات بين الناس وفي الأمور الأخرى طرح فكرة الاعتدال.

وبفضل الحاجة للتعليم والتعلم دوّن ونشر كثيرا من الكتب التراثية، ثم أدخل بعض أفكارها في مؤلفاته. فصارت فكرته في التعليم أفضلَ من حيث الضوابط لتربية الناس لدى الطبقة المسيطرة الإقطاعية، لهذا قدّسه الكثير من الناس واعتبروه نبيا، وكانوا لا يعبدونه فقط، بل بنوا له أيضا معابد كثيرة في جميع أنحاء البلاد.

هذا وقد تناولتُ الفلسفة الكونفوشيوسية من جانبين هامين لا غير: النظرة إلى الإنسان والكون، والفلسفة الأخلاقية والتي تتمثل في "المروءة والأركان الثلاثة" وذلك لأن هاتين المسألتين محور الفلسفة الكونفوشيوسية، على النحو التالي:

- **المروءة**

إن الفلسفة الأخلاقية في الكونفوشيوسية ذات صلة وثيقة بـ"المروءة" التي تعتبرها محور الفلسفة الكونفوشيوسية وأساسها، وأنها مقياس الأخلاق الأعلى، وهي تمتاز بالرحمة والإحسان والعطف والاحترام والحب والتواضع والحِلم وغيرها من الصفات الأخلاقية.

ويرى كونفوشيوس أن المروءة أهم من الحياة، فبدونها ستصبح الدنيا متوحشة بل متشتتة. وأن المروءة في التواضع، وفي دقة عمل الإنسان، وفي إخلاص معاملة الآخرين، فما دام الإنسان يتمسك بهذه الأخلاق الفضيلة تكون المروءة

محصلة. وقال في كتابه الحوار: "سأل "يان يوان" عن المروءة، فقال له الأستاذ: المروءة أن يجاهد الإنسان نفسه فيعود إلى الأدب؛ ومن جاهد نفسه يوما فعاد إلى الأدب، أقر بمروءة جميع من تحت السماء وإنما تنال المروءة ببذل جهدك أ تفكر في إعانة غيرك؟"[١١].

وقال أيضا: "سأل "جونغ كونغ" عن المروءة فقال له الأستاذ: إذا خرجت من بيتك فعامِل الناس كأنك تُقابِل كبار الضيوف احتراما، وإذا استخدمت رعيتك فاستخدِمْهم كأنك تقدِّم القرابين في الاحترام، ولا تُعامل الناس بما لا ترضى أن تعامل به وليكن التذمُّر منك غير موجود في بلادك وفي بيتك"[١٢].

وقال أيضا: "سأل "سي ما نيو" عن المروءة فقال له الأستاذ: ذو المروءة هو الذي يتثاقَل عن القول"[١٣].

والمروءة تحتوي على الوقار والسماحة والصدق والجِد والسخاء، كما قال: "إذا كان المرء ذا وقار لا يُهان؛ وإذا كان ذا سماحة يستجيب له الجماهير؛ وإذا كان ذا صدق يصدقه الآخرون؛ وإذا كان ذا جدّ ينجح في العمل؛ وإذا كان ذا سخاء يستطيع أن يستعبد الآخرين"[١٤].

وكذلك المروءة ترتبط بالأدب (لي)، كما قال كونفوشيوس: "المروءة أن يجاهد الإنسان نفسه فيعود إلى الأدب"[١٥]. وأن المروءة هي شعور ذاتي، وأن الأدب هو نظام موضوعي؛ يكمل أحدهما الآخر، ولكن يختلف أحدهما عن الآخر، ذلك لأن المروءة من الوعي والإدراك الداخلي، وأما الأدب فمن القهر والإجبار الخارجي.

---

[١١] كونفوشيوس، الحوار، ص٢٥٠.
[١٢] المصدر السابق، ص ٢٤.
[١٣] كونفوشيوس، الحوار، ص ١٢٦.
[١٤] كونفوشيوس، الحوار، ص ١٨.
[١٥] المصدر السابق، ص ٢٥٠.

(ISSN: 2536 - 9555)

وقد اهتم كونفوشيوس بدور المروءة، فنادى الإنسانَ أن يعمل بنظام الأدب بعد محاولته تحقيق الأدب بالمروءة؛ فكيف يكون المرء ذا مروءة؟

أولاً: بمجاهدة نفسه، وبجعل هدفه الحياتي يتناسب مع طبقة السلطة، ويبدأ من نفسه ويعمل حسب الأدب، ثم يطبق هذا الأدب في السمع والبصر والقول والعمل. كما قال: "لا ينظر المرء ولا يسمع ولا يقول ولا يعمل إلا بالأدب"[١٦]. ومعنى ذلك أن المرء الذى يمتاز بالمروءة قد سَنّ سنة الأدب في كل من البصر والسمع والقول والعمل.

وثانيا: بالعودة إلى الأدب، فيجعل القول والعمل في صميم نظام الأدب. وإذا كان المرء يستطيع أن يجاهد نفسه ويجعل نفسه مُنسَجما مع الأدب فهذه هي المروءة.

والأدب المذكور هنا هو أدب الحكام، فيرى أن الحاكم الحقيقي يجب عليه أن يخضع لنظام الأدب في العمل والفكرة؛ والمروءة هي أخلاق الحكام وهي نافعة للإنسان ولا ضرر فيها، وهي أعلى حَيز الأفكار، وأما المحكوم أو العبد فبعيد عن هذه الأخلاق، وأن روح المروءة الأساسية هي أن يصلح التناقض الموجود في دائرة حياة الحكام بنظام أدبهم. كما قال: "أتمنى أن يبلغ الآخرون إلى ما بلغت إليه، ولا أُعامِلُهم بما عامَلوني به"[١٧]. فكلمة "الآخرين" هنا تشير إلى الحكام والأشراف لا العبيد[١٨].

ويرى أن الأدب سيصبح شكلا خياليا إذا ابتعَد الإنسان عن مبدأ المروءة، ولذلك لا يختلف الأدب عن المروءة، ولا المروءة عن الأدب، بل يكونان وجهين

---

[١٦] انظر: كونفوشيوس، الحوار، ص٢٥٠.

[١٧] انظر: كونفوشيوس، الحوار، ص ٢٣٩.

[١٨] انظر: رين جي يوي، تاريخ الفلسفة الصينية، ص ٧٣.

لعملة واحدة[١٩]. وقد تمنىّ كونفوشيوس أن تصل المروءة إلى ذات الإنسان ثم إلى الآخرين، وإلى الأسرة ثم إلى المجتمع؛ وأكد أن الطاعة هي أساس المروءة.

- الأركان الثلاثة

وأما ما يتبعه من الأركان الثلاثة (سلطة الإمبراطور على الرعية، وسلطة الوالد على الولد، وسلطة الزوج على الزوجة) والمَكارم الأزلية الخمسة (المروءة والصدق والأدب والعقل والأمانة)، فهي أخلاق حسنة لا يملكها المرء إلا بالدراسة والتعلم؛ وإذا لم يتعلم فستتحول هذه الأخلاق إلى أخلاق سيئة من الجهل والفساد والسرقة والخداع والفوضى والجنون.

لهذا نلاحظ أن المبادئ الخلقية عند كونفوشيوس هي: إطاعة الوالدين، واحترام الأسرة، والسلم بين الأباطرة والرعية، والعدالة والرحمة بين الإنسان وأخيه الإنسان. لذا كان يسعى في تعليماته للإبقاء على تلك التقاليد التي تُعِدّ المجتمع نظاما مقدسا يقوم على قواعد خمس تبين العلاقات الاجتماعية بين أنواع الخمسة من الناس هي: علاقة الإمبراطور برعيته، وعلاقة الزوج بزوجته، وعلاقة الوالد بولده، وعلاقة الأخ بأخيه، وعلاقة الصديق بصديقه.

فيقول كونفوشيوس: "أكرِمْ أباك وأمك وافعل كل ما تستطيعه لتجعلهما سعيدين، واعبد ذكراهما ما دمت حيّاً"[٢٠]. وكان يفرض في تعليماته وجوب الطاعة من غير مناقشة.

وقد تركزت المبادئ الخلقية عند الكونفوشيوسية على فضيلتين اثنتين حسب رأي مؤسسها، وهي فضائل خالدة[٢١]:

---

[١٩] انظر: كونفوشيوس، الحوار، ص ١٥.

[٢٠] انظر: كونفوشيوس، الحوار، ص ٤٥.

[٢١] انظر: فوزي محمد حميد، عالم الأديان بين الأسطور والحقيقة، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، (د.ت) ص ٢٢٧.

(ISSN: 2536 - 9555)

أولهما: آداب اللياقة، فهي تشمل آداب المجتمع وآداب البلاط والشعائر الدينية، ونظم العدالة وقواعد السلوك الحسن، والمبادىء الأخلاقية الرفيعة.

وثانيهما: العطف الإنساني، أي حب الآخرين وطيبة القلب وسلامة النية.

فقواعد اللياقة وآداب السلوك لدى كونفوشيوس هي أساس لكل فضيلة، كما توجد فضائل أُخر كان يُلقِّنها لتلاميذه، مثل صدق الولاء والشعور بالخجل والتواضع والحكمة وحب الآخرين، ويقول: "إن الطبيعة الإنسانية مستقيمة فإذا فقد الإنسان هذه الاستقامة في حياته افتقد معها السعادة"[٢٢].

٢. فلسفة الأخلاق عند الطاوية:

إن الطاوية– كالكونفوشيوسية– مذهب من المذاهب الفلسفية، وهي في نفس الوقت من الديانات الصينية القديمة، منسوبة إلى فيلسوف عظيم ومشهور في عصر الربيع والخريف (سنة٧٧٠ق.م– سنة٤٧٦م) ألا وهو لاو تسي.

والطاوية هي ديانة أصيلة للشعب الصيني، نشأت على أنقاض التقاليد الصينية القديمة وعقائدها، فهي تمتاز بجميع ملامح الثقافة الصينية وحضارتها، وقد امتدت هذه الديانة زمنيا إلى أكثر من ألف وثمانمائة سنة[٢٣].

وقبل أن ندخل في صميم الموضوع قد يحتاج الأمر إلى ترجمة حياة لاو تسي؛ وهو لاودان (سنة٥٨٠ق.م– سنة٥٠٠ق.م) ولقبُ عائلته "لي" واسمه "أر". ولد في محافظة "كو" التابعة "لإمارة تشو"، المسماة اليوم بمحافظة "لويي" في مقاطعة "خنان"[٢٤]. وقد عمل مسئولا في خزانة الكتب لأسرة "تشو" الملكية. وكانت معلوماته مما يسمعه وما يراه كثيرة جدا، وكان يعلم أسرار الفلك والثقافة

---

[٢٢] كونفوشيوس، الحوار، ص ٢٢.

[٢٣] انظر: لي ينغ تشينغ، التعريف بالطاوية، دار الكتب الصينية، الطبعة الأولى، سنة ١٩٩٤م، ص ٣.

[٢٤] هي اسم المقاطعة، تقع في وسط الصين. انظر: المعجم المحيط الصيني، ص ٩١٢.

التاريخية، وكان من عظماء الفلاسفة الصينين، ولكن شهرته ظلت محصورة في التنسك والحكمة (الفلسفة). ودرس كونفوشيوس عنه الأدب، واعتزل الناس في آخر حياته وجلس في مَسقط رأسه، وعكف على حياة الزهد[٢٥].

وألّف كتاب الأخلاق "لاو تسي" الذي يتكون من خمسة آلاف رمز في جزأين، ويشتمل على واحد وثمانين بابا. وجمع فيه كثيرا من الأمثال الشعبية، والمبادئ الطاوية، ويُعَدّ كتابَهم المقدس، وأن لاو تسي مؤسس هذه الديانة، وقد قدسه تابعوه وزعموا أنه إله معبود. وسمي هذا الكتاب منذ عصر "خان" باسم "داو ده جينغ"؛ ف "داو" هنا معناها الطريق الذي يبين عالم الظواهر ونظامه كما تعني نظام الكون الذي لا يداخله الخلل وتعني القوة الكامنة في الطبيعة والأشياء؛ وأما "دَهْ" فمعناه أخلاق، ولكن الكتاب اختلف في ترتيب الجزأين، فقدم الجزء الخاص بالأخلاق على الجزء الخاص بالطريق؛ وهو كتاب فلسفة، ومادة مناسبة ومباشرة في دراسة فلسفة لاو تسي بالإضافة إلى تعقيده وتناقضه في فصوله وأجزائه وصعب الفهم.

ويرى لاو تسي أن "داو" هو ذلك الشيء الذي حقَّ وجوده، "ده" يتبعه. وقد اتضح ذلك في أقواله التالية:

فقال: "إن "داو" هو ما لا يُرى ولا يُسمع ولا يُلمس، فلا يمكنك أن تعرف شكله، وإنه في جسد واحد، فلا يظهر فوقه النور، ولا تحته الظلام، فإنه متواصل لا يوصف، وأن كل حركات الكائنات سترجع إلى الشيء الغيبي، وهذا هو ذلك الشكل الذي لا شكل له، والصورة التي لا جسد لها، فسمّي بالغيب، وإذا واجهته لا ترى وجهه وإذا أتبعته لا ترى ردفه"[٢٦].

---

[٢٥] انظر: كه رونغ جينع، الثقافة الطاوية والحضارة العصرية، دار طباعة الجامعة الشعبية الصينية ببكين، الطبعة الأولى، سنة ١٩٩١م، ص ٢٦٣. والمعجم المحيط الصيني، ص١٢٣٥.

[٢٦] لاو تسي، داو ده جينغ، دار الكتب التراثية بجيانغسو، الفصل ١٤، ص ٣٧.

(ISSN: 2536 - 9555)

وقال: "إن "داو" شيء غيبي، فما أشّد هذه الغيبوبة! قد وجد منها شكلا، وما أشدّ هذه الغيبوبة! قد وجد منها شيئا حقيقيا، وقد وجد من الشيء الغامض والمبهم خلاصة حقيقية وموثوقا بها"[٢٧].

يرى لاو تسي أن "داو" مبدأ المخلوقات، وأنه لا شكل له ولا صورة، ولا تدركه الحواس، ولا تعرفه العقول إلا في حالة السكون، كما قال هو: "إذا أردت أن يبلغ قلبك إلى أقصى الفراغ فاحفظ سكونَه... وأما الكائنات فمع أنها تتنوع ولكنها ترجع إلى أصلها، فالرجوع إلى الأصل يسمى السكون، والسكون يسمى العودة إلى الفطرة، والعودة إلى الفطرة تسمى الخلود، ومعرفة الخلود قد تسمى البصيرة"[٢٨].

ويشير هذا الكلام إلى أن كل الكائنات تعود في النهاية إلى أصلها وعند العودة يحصل الخلود، فإذن الخلود هو نتيجة الاتحاد.

وقد دعا لاو تسي الناس إلى ألا يُحسّوا الأشياء بالحواس الخمسة، وأن يسدّوا آذانهم وأبصارهم وأفواههم وأُنوفهم، فبذلك يسلمون من الأمراض طول الحياة؛ وفي المقابِل لا يمكن علاجهم إذا أحسوها بالحواس. وقال: "إن الألوان الخمسة (الأزرق، الأحمر، الأصفر، الأبيض، الأسود) تَبهَر أبصار الناس؛ وأن الألحان المتنوعة تجعلهم صُمّا؛ وأن الأذواق الخمسة (الخامض، الحلو، المُرّ، الحار، المالح) تضر شهيتهم"[٢٩]، فدل هذا على أن كل الشهوات تمنع الإنسان من معرفة معرفة حقائق الأشياء وهي العوائق التي تسد الإنسان عن العودة إلى الأصل.

ويرى أن الإنسان ما دام يعرف "داو" أي الطريق يمكنه أن يعرف أمور الدنيا كلها وإن انعزل عن الناس ولم يخرج من البيت، وإذا كثر اتصاله بالأمور الدنيوية

---

[٢٧] لاو تسي، داو ده جينغ، دار الكتب التراثية بجيانغسو، الفصل ٢١، ص ٥٩.

[٢٨] المصدر السابق الفصل١٦، ص ٤٣.

[٢٩] المصدر السابق، الفصل ١٢، ص ٣١.

تقل معرفته[٣٠]، فدل هذا على أن الأمور الدنيوية تجعل الإنسان قليل المعرفة، وتمنعه من أن يصل إلى الاتحاد مع "داو"، لذلك فمن يرغب في الاتحاد والخلود معه فليزهد!

وقال أيضا: "إن سدّ منافذ الشهوات، وإغلاق أبوابها، وتثبيط العزم، وإصلاح الجدال، وكمال النظر إلى المسألة والاختلاط في الأمور الدنيوية، هي حالة الاتحاد"[٣١]. فعندئذ تتطهر النفس وتصفو إلى الغاية، ويعرف "داو" بالحواس الداخلية، وقال: "ألا تشوب الإنسان شائبة، إذا زكّى نفسه حتى وصل إلى إدراك الأشياء بالنفس"[٣٢] ويعني ذلك أن يزكيَ الإنسان نفسه فلا تشوبُه شائبة، كأنها مرآة صافية لم يلوّثْها غُبار، فعندئذ تظهر جميع الأشياء أمامه.

ويعتقد الطاويون بأن الفضيلة هي عدم العمل والاقتصار على التأمل والتجربة الصوفية، ويؤمنون بالحرية وعدم التدخل في شؤون الأفراد ويمكن أن تتحقق الفضائل وأن يسود السلام إذا لم نتدخل ولم نعمل[٣٣].

وكانت هناك حكمة تسود بين أتباع الطاوية تقول: "اشغل نفسك بلا مشغلة"[٣٤]. أي أن الإنسان يجب أن لا يشغل نفسه بشيء على الإطلاق، فهي تدعو إلى ترك الأمور تسري في أعنتها.

والطاوية تدعو الإنسان إلى عدم النضال ضد "داو"، وعليه أن يستسلم ويخضع لها ويسير طبقا لها، وأن السعيَ وراء السلطة هو أمر سخيف وغير أخلاقي، وأن الطريق لا يمكن أن تهزم وعلى الإنسان أن يتعايش معها. فالمعتنِق

---

[٣٠] انظر: تشين قو ينغ، شرح داو ده جينغ وتحليله، ص ٢٤٨– ٢٤٩.

[٣١] المرجع السابق، ص ٢٨٠.

[٣٢] تشين قو ينغ، شرح داو ده جينغ وتحليله، ص ٩٦.

[٣٣] انظر: فوزي محمد حميد، عالم الأديان بين الأسطور والحقيقة، ص ٢٣٨–٢٣٩.

[٣٤] لاو تسي، داو ده جينغ، دار الكتب التراثية بجيانغسو، الفصل٣٧، ص ١٠٠.

(ISSN: 2536 - 9555)

للطاوية يقول: "إن الماء في منتهىَ الرقة وينصَبّ إلى الأسفل بكل سهولة وهو يتجاوَب مع أضعف قوة دون إبداء أية مقاومة، ومع ذلك فلا يمكن تحطيم الماء والقضاء عليه"[٣٥]. بينما نجد أن أقسى الصخور تتفتت بعوامل النحت والتعرية بمرور الزمن، وعلى الإنسان أن يتجنب العُنف، وأن تكون البساطة والمعيشة الطبيعية هي غايته، وأن يتجنب المساعي للوصول إلى المال أو السلطان.

ثالثاً: العلاقة بين فلسفة الأخلاق عند الكونفوشيوسية والطاوية

حسب ما ذكرناه سابقا، وقد عرفنا ووضوحا فكرة الأخلاق بين هاتين الفلسفتين. وإن الأخلاق عند الكونفوشيوسية تقوم على أساس المروءة، والمروءة عنده هي تهذيب الأخلاق؛ وأن الرجل الكامل الخلق هو ذو مروءة، وأن المروءة يقِرّها الشعور الذاتي، فينال الإنسان المروءة ما دام ينشدها.

وهذه الفكرة أيضا قد اتخذها الحكام وسيلةً لدعم الأخلاق وتوثيق العلاقة بين أفراد المجتمع بعضهم ببعض من ناحية، وبين الحكام من ناحية أخرى، وهم يُعدّون الدين والأخلاق والسياسة شيئا واحدا. كما دعا كونفوشيوس إلى الأخلاق الفاضلة والتي سلك فيها ثلاثة مسالك هي:

١- احترام الآباء والعناية بتماسُك الأسرة وترابُطها فهو يقول: "واجب الابن البر بأبويه إذا كان في داخل المنزل، والاحترام لِذَوِي الإنسان إذا كان في خارجه. والصدق في أقواله والرحمة بالناس في كل أفعاله وأن يتقرب إلى الفضلاء، وأن يقضي فراغ وقته في كتب الأخلاق".

٢- الدعوة إلى الفضيلة بالتدريج، وإلى الأخلاق برِفق، ومخاطبة الناس كل حسب طاقته.

٣- الدعوة إلى الخلق القويم والقدوة الحسنة، فكان يدعو تلاميذه إلى السلوك الخلقي بأخلاقه ودعاهم أيضا بكلماته فهو يقول لهم: "أتظنون أنني أُخفي

[٣٥] لاو تسي، داو ده جينغ، دار الكتب التراثية بجيانغسو، الفصل ٧٨، ص ٢١٠.

عليكم شيئا؟ ما من أمر أُعلّمُه إلا في إرشادكم وهذه هي طريقتي في التربية"[٣٦].

إذن لا يخفى علينا أن نرى أن فلسفته الأخلاقية مبنية على أساس الخدمة لأمور الإنسان فليست لها أية صلة بديانات، وليست هي إلا نظرية مصنوعة، وهدفها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفكرته التربوية أساسا في تربية الإنسان ذي الموهبة والكفاءة.

فقد لعبت الفلسفة الكونفوشيوسية دورا أساسيا في أيديولوجية مجتمع الصين الإقطاعي منذ آلاف السنين، وأثرت في الحياة الشعب الصينى تأثيرا كبيرا؛ فمن يتوظف في الحكومة لا بد له أن يجيد الفلسفة الكونفوشيوسية، ومن يتدين بأية ديانة لا بد له أن يتبع هذه الفلسفة التي ترى أن من يتبعها فهو على الحق ومن يخالفها فهو في الباطل.

وأما الأخلاق عند الطاوية فهي تقوم على فكرة "داو" و"دَهْ". وهنا "داو" معناها الطريق الذي يبين عالم الظواهر ونظامه، كما تعني نظام الكون الذي لا يداخله الخلل وتعني القوة الكامنة في الطبيعة والأشياء؛ وأما "دَهْ" فمعناه أخلاق، وتربية أخلاق الإنسان عند الطاوية على **المراحل التدريجية التالية:**

١- أن يخلو الفرد بنفسه وأن يقطع كل الصلة التي بينه وبين عالم الأشياء المحسوسة.

٢- الامتناع عن كل ما من شانه تدنيس الروح والحيلولة بينها وبين الوصول إلى الحقائق المجردة عندما يتحرر ذهن الإنسان عن الماديات حتى يصير روحا خالصة.

٣- مرحلة الرؤيا أو الإشراق وفيها يُدرك الفرد الحقائق المجردة إدراكا مباشرا.

٤- مرحلة الاتصال التام أو الوحدة بين الفرد والقانون الأعظم، ومنها يحصل

---

[٣٦] كونفوشيوس، الحوار، ص ٢٦٠.

(ISSN: 2536 - 9555)

الاندماج التام بين شخصية الإنسان والذات العليا بحيث تفنِي الشخصيتان في شخصية واحدة حتى ارتفع الأخلاق إلى قمة الأعلى.

وكذلك تعتقد الطاوية بتناسخ الأرواح وأن **لكل إنسان فاضل ثلاثة أنفس هي:**

النفس العاقلة: ومقرها في الرأس.

النفس الحساسة: ومقرها في الصدر.

النفس المادية: ومقرها في المَعِدة.

فإذا مات الإنسان تذهب نفسه العاقلة إلى الأرواح الأبدية، وتنزل الثانية في القبر بينما النفس الثالثة تظل تائهة ضائعة تلتمس الدخول في جسم آخر، وتتقمص فيه. وإذا لم تتخذ الاحتياطات اللازمة أصبحت تلك النفس عدوة للعائلة، ولذا هم يوقدون عيدانا من الطيب عند أبواب منازلهم عند موت أحدهم حتى يمنعوا بهذه العيدان دخولَ نفسه أو سواها من الأرواح الشريرة إليهم.

رابعاً: الخاتمة

هذا، وقد كفاني أن أقدم في النطقة السابقة عن الفرق بين فلسفة الأخلاق بين هاتين الفلسفتين. وقد عرفنا أن هاتين الفلسفتين هما فلسفتان صينيتان تقليديتان وقد لعبتا دورا رئيسيا في حياة الصينيين ومجتمع الصين القديم والحديث. فلفلسفة كونفوشيوس الأخلاقية أثرها الوضح على نهضة الصين المعاصرة والتي انتطلقت من معرفة الذات إلى معرفة الآخر. ثم الانفتاح على العالم بقيم المروءة والعدل والرحمة والسماحة.

فمنذ آلاف السنين قد أثرت الفلسفة الكونفوشيوسية والطاوية في حياة الشعب الصيني تأثيراً كبيرا، وخصوصا الكونفوشيوسية التي احتلّت مكانا مسيطرا في مجال الأيديولوجيا. فواضح أنها انتشرت انتشارا واسعا، وأثّرت في كل مجال من مجالات الحياة الاجتماعية، وقد لعبت دورا أساسيّا وقياديّا في أيديولوجية مجتمع الصين الإقطاعي التقليدي، وكانت الفكرة الرسمية التي قد ساد نفوذها أكثر من

خمسة وعشرين قرنا منذ القرن السادس قبل الميلاد إلى يومنا هذا.

لذلك كانت الكونفوشيوسية لها تأثير أعظم من الفلسفة الطاوية في الصين وخاصة فكرته الأخلاقية التي لها تأثير في كل من المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية، وكانت نموذجا لأفعال الصينيين في الحياة الاجتماعية، وصارت من المقومات التي لا غنى عنها في تكوين نفسية الأمة الصينية وروحها، حتى يرى بعض الناس أن روح الصينيين هي روح الكونفوشيوسية. ونلاحظ إذن أنّ تأثير الكونفوشيوسية في المجتمع الصيني القديم كان شاملا جدّا، وفكرته أشدّ انتشارا من الطاوية.

قائمة المصادر والمراجع:

١- شياو شا فو (Xiao Sha Fu) و لي جين تشيوان (Li Jin Quan)، الفلسفة الصينية، دار الطباعة الشعبية، سنة ١٩٨٢م.

٢- شياو جيه فو ولي جينغ تشيوان، تاريخ الفلسفة الصينية، دار الطباعة الشعبية، الطبعة الأولى، ١٩٨٢م، الجزء الأول.

٣- كه رونغ جينغ (Ke Rong Jing)، الثقافة الطاوية والحضارة العصرية، دار طباعة الجامعة الشعبية الصينية ببكين، الطبعة الأولى، سنة ١٩٩١م.

٤- كونفوشيوس (Kong Zi)، الحوار، دار الكتب التراثية بشانغهاي، الطبعة الأولى، سنة ٢٠٠١م.

٥- كونفوشيوس، المعرفة الكبرى، دار الكتب التراثية بشانغهاي، الطبعة الأولى، سنة ٢٠٠١م.

٦- لاو تسي (Lao Zi)، داو ده جينغ، طبعة الأولى، دار الكتب بجبل يان- بكين، سنة٢٠٠٠م.

(ISSN: 2536 - 9555)

٧- لاو تسي، داو ده جينغ، دار الكتب التراثية بجيانغسو، الطبعة الأولى، سنة٢٠٠١م.

٨- لي ينغ تشينغ (Li Yin Zheng)، التعريف بالطاوية، دار الكتب الصينية، الطبعة الأولى، سنة ١٩٩٤م.

٩- وانغ سينغ كانغ (Wang Xing Kang)، شرح الحوار، دار الكتب التراثية بشانغهاي، الطبعة الثالثة، سنة ٢٠٠٣م.